موضوع المسابقة: لبنان كما نحلم به

المدرسة: أمجاد

الطالبة: ملاك مرشاد

لبنان....وطن الاحلام

في طرابلس، لبنان، تهت مسحورة بجمال المدينة التي لم ار جمالا بجمالها من قبل. ذهبت الى طرابلس التي رسمت لها في خيالي صورة مدينة مدمّرة كما تنقل لنا وسائل الاعلام،مدينة منبوذة وفقيرة وضعيفة.لكن في الواقع رأيتها مدينة تنبض بالروح وذات عزيمة قادرة على المقاومة.

نسيت نفسي في الاسواق القديمة، فجدرانها توشك أن تتكلم وتفصح عن الذكريات التي تحملها وعن تراثها العريق. كلّ زاوية من السوق تخبر أسراراً وذكريات، جيّدة أو سيئة، فهي حميمة. كلّ مبنى في السوق شاهد على أوضاع عصيبة ومؤلمة مرّت على لبنان.في بادئ الامر، ومن جهلي لهذه المعلومات،مررت في السوق غير مدركة الجواهر التي تحيط بي،مررت فيه وكأنني سائحة في بلدي لا أعرف شيئاً عنه سوى اسمه " لبنان" وحاضره المؤلم.

كلّ المحلات في السوق بسيطة، تعرض صناعات يدوية وبضائع من جميع الاصناف. لكنّ محلاً واحداً لفتني بواجهته التي عُرضت فيها صورٌ عن الاماكن الأثرية في جميع المناطق اللّبنانية بطريقة تفرح الحجر. بالرغم من أنني لا أملك القدرة على شراء أيّ شيء، الاّ أنّ صوتاً في داخلي كان قويّاً دفعني بحماس نحو المحل. فدخلت. وعندما دخلت ملأت رئتيّ رائحة التراث. نعم رائحة تُسرّ إليّ أنّ المكان الذي ادخل اليه ليس كغيره من المحلّات، بل هو محل تراثي بامتياز.

رمقت المحل بنظرة سريعة. أحقيقة ما أراه؟ من الخارج، المحل بسيط وصغير يخدع الوافد، لكن عندما تدخل تصرعك الحيرة الى أيّ ركن في المحل ستنظر. رأيت زاوية مخصصة للأكل اللّبناني والمازّة، والجوائز العالميّة في الأكل اللّبناني اللّذيذ التي حصل عليها أشخاص وطبّاخون لبنانيون، وزاوية أخرى للزيّ اللّبناني التراثي "الطنطور" و "الشروال".فارتسمت في مخيلتي صورة المرأة اللّبنانية الجبّارة والصلبة ترقص وتتمايل على أنغام الموسيقى، فتجسّد الرقصة التقليدية،الدبكة،مرتدية الطنطور، وتمسك يداً بيد مع أخيها اللّبناني الذي يرقص مرتدياً الشروال ومعتمراً الطربوش. ارتسمت هذه اللّوحة بكلّ تفاصيلها في عقلي وكأنّني أراها أمامي. وزاوية أخرى عرضت ما في حوزتها من تحف خشبيّة وصناعات يدوية، والأرتيزانا. كلّ ما في المحل مرتّب ومصنّف ليجذب اللّبناني والمهتم في التاريخ، فشعرت لوهلة أنّني أدخل متحفاً أثريّاً، ولا أريد الخروج منه.

أردت أن أتعرّف الى صاحب المحل وألقي عليه التحيّة، فرأيته يجلس خلف مكتبه يقرأ جريدة ويبكي بحسرة. فتفاجأت، واقتربت منه لأطمئنّ الى صحته. نظر إليّ وفي عينيه دمعة، قال:"طالما لبنان ليس بخير،أنا لست بخير". فقلت له:"ما الخبر الحزين الذي تقرأه في الجريدة؟ هل حصلت جريمة قتل؟" فردّ بصوت مخنوق:" نعم،حصلت،حصلت جريمة بحقّ لبنان، قتلوا لبنان". وبعدها أعطاني الجريدة التي كانت في يده لأقرأها. هي جريدة قديمة تعود لسنوات الحرب الأهليّة، وعنوانها العريض "لبنان قبل عشرين سنة." أدهشني العنوان، فهل حقاً سيتكلمون عن لبنان في الستينات، واعتراني الفضول لأعرف المزيد. فطلب إليّ الجلوس ليخبرني قصة الوطن.

طلب لي كأساً من الشاي المخمّر، ووضع أمامي على المكتب ضيافة متواضعة من بسكوت غندور وراحة. بدأ كلامه بأنّ كلّ من يزور المحل هو من هواة التراث، وأكّد أنّني لن أكون الوحيدة التي ستندهش ممّا سيخبرني إيّاه. ثمّ قال:"كان يا مكان، بلد على الخريطة اسمه لبنان، رابع أكثر الدول ازدهاراً في العالم."ظننته لوهلة يتكلّم من فراغ وأنّه مريض، لكن فضولي لم يسمح لي بالمغادرة بل زاد من عزيمتي على البقاء ومعرفة السبب الذي استمطر دموع هذا المسن المسكين. عاد بي الى الستينات ، أي الى ثلاثين سنة خَلَت حين كان لبنان بلد الأحلام، ومنبع الطاقات. أضاف:"إنّ لبنان في هذه الفترة شهد ازدهاراً اقتصاديّاً غير مسبوق، فازدهرت جميع القطاعات فيه بدءاً من قطاع الزراعة وقد حقّق أرباحاً وفيرة من تصدير المحاصيل الزراعية الفائضة الى الخارج. وانتقل الى القطاع الصناعي الذي أقبل عليه المستثمرون العرب والأجانب مستفيدين من الأيدي العاملة الماهرة ومقومات الاستثمار السليم الموجودة، ثمّ القطاع السياحي الذي كان كالشمعة المضيئة في لبنان. ففي هذه الفترة كانت الوفود تقصد لبنان بهدف الاستشفاء وللإفادة من جودة الطبابة وانخفاض تكلفتها، وبهدف الزيارات الدينية، بما أنّ لبنان معروف بتعدّد الطوائف التي تعيش سويًّا باحترام من دون أن تحاول الواحدة منها أن تلغي الأخرى. تأكيداً على هذا،زار وفد سنغافوري لبنان عام ١٩٦٤ راجيًا من بحثه مع مسؤولين حكوميين في بيروت التعرّف على سرّ العيش المشترك بين اللّبنانيين بالرّغم من تعدّد الطّوائف. فأخذ هؤلاء من لبنان قدوة ومن بيروت منارة للفكر والحريّة.وبخصوص المنتجعات السياحية، فهي موضوع آخر. فالسّائح واللّبناني كانا يتزلّجان في الصّباح ويسبحان في الظّهر متمتّعين بتنوّع طبيعة البلد.

أصابتني الدّهشة، فكيف أصبح ذلك البلد هكذا الآن؟ أخذ العم نفساً عميقاً وتنهّد وقال إنّه كان من أغنياء لبنان، فقد امتلك شركة صناعة النّسيج، وكان يصدّر إلى الخارج ويحقّق ربحاً وفيراً، لكن في ليلة من ليالي الحرب الأهليّة تدمّر المعمل بالقصف ولم يبق سوى قطع قماش ليجفّف بها دموعه ويداوي جرحه.

شعرت بالقشعريرة، وتأثّرت بكلامه كثيراً، فإنّه عجوز لاكه الدهر، ورماه في آخر المطاف في زاوية من سوق طرابلس يتحسّر على ما فقده وعلى أيّام لبنان الجميلة. خرجت من المحل من دون أن أتفوّه بكلمة محاولة استيعاب المعلومات التي تدفقت الى عقلي. فخرجت بخطوات بطيئة، أحاول من خلالها أن أخفف سرعة الوقت لأتمكّن من الإفادة منه. خرجت من المحل، وأنا لست أنا، أنا شخص جديد، نظرتي لكلّ ما حولي تبدّلت، فأصبحت أرى ما كنت لا أراه ولا أعطيه اهتماما من قبل. والأهمّ من هذا أنّني دخلت المحل بصوت في داخلي مثقل بالفضول لمعرفة المزيد وكأنّني شخص عطشان بحاجة للماء ليروى، وها أنا أخرج منه بصوت، لكن هذه المرّة راح الصوت يدفعني الى التّغيّر، لإعادة إحياء ماضي لبنان الجميل وتعليم الجميع الفخر بوطنهم.

رأيت شمعة مضيئة أمامي، فاعتبرتها إشارة من الله بأنّ ما سأفعله هو الصّواب. ضعت في نور هذه الشّمعة، وأخذتني أفكاري الى المستقبل، الى مستقبل لبنان الّذي أحلم به ونحلم به جميعاً. نقلتني أفكاري الى أرض الأحلام وجنّة الأطفال. فالأولاد الّذين رأيتهم يبيعون العلكة والمحارم في سوق طرابلس منذ قليل، ويتأمّلون الكتب في المكتبات، رأيتهم يذهبون الى المدرسة، ويجلسون على المقاعد الدراسيّة ويجتهدون في الدّراسة. رأيت الأمل فيهم، رأيت جيلاً يحبّ لبنان الأمل يتخرّج من الجامعات ويبتكر أشياء ويقوم باختراعات تسطّر اسم لبنان في عالم التقدّم. رأيت وسائل الاعلام المحليّة والعربية والاجنبية تنقل خبر وصول لبنان الى الفضاء وتحقيق حلم طلاّب الجامعة اللّبنانية في الستينات. رأيت الجامعة اللّبنانية تبني نفسها مرّة أخرى وتستلم زمّام الأمور وتنقذ الشّاب اللّبناني من الذّل في الجامعات الخاصّة.

كلّ هذه الأمنيات طرقت بابي دفعة واحدة. فقلت:"ماذا لو تمكّنت من تحقيق هذه الأمنيات، فإنّها ليست أمنيتي وحدي بل هي أمنية الشّعب اللّبناني.فالكلّ يريد لبنان مشفى الشّرق وجامعة العرب. الكلّ يريد لبنان، بلد الحريّة والأمان وملتقى الحضارات." تخيّلت اللّبنانيين يمسكون أيادي بعضهم بعضًا ويدخلون الى المسجد والكنيسة ليصلّوا ويطلبوا من الله حماية البلد وشعبه. ورأيتهم يشبكون أياديهم في الرّقص والفرح والغناء من دون أن يحملوا هموماً أو يقلقوا على مصير أولادهم الّذين لا يتمكّنون من توفير مسكن ملائم لهم أو طعام يسدّ رمقهم أو حتّى تعليم يغذّي روحهم. أخيراً رأيت العلم اللّبناني بأرزته الشّامخة يرفرف في العالي ويحمي تحته الأراضي اللّبنانية من الحروب والشّعب اللّبناني من الجوع والفقر.

لقد أرهقتني كلّ هذه الأفكار،فشعرت بالوحدة في وسط السّوق، بالرّغم من وجود الكثير من المشترين والبائعين حولي. وبعدها أجهشت بالبكاء، وشعرت وكأنّني عاجزة عن النّهوض بلبنان. شعرت للحظة أنّ كلّ ما حلمت به سيبقى حلماً ولن أتمكّن من بعث الرّوح فيه. ففقدت الأمل وخاب ظنّي حتّى جاءت تلك الفتاة الصغيرة وسألتني أن كنت أودّ شراء علكة. نظرت إليها بعينين دامعتين، فاستفسرت عن سبب بكائي، لكنّني عجزت عن إخبارها السّبب ورفضت أن أشوّه صورة لبنان في وجدانها. اقتربت إليها وسألتها عن حلمها، فأجابت جواباً بسيطاً، هو حقّ كلّ طفل في التعلّم' أيّ ظلم نعيش؟ أأصبحت حقوقنا أحلامًا؟

في تلك اللّحظة خطرت في بالي فكرة ستجعلني جزءاً من الحلّ، وهي تعليم الأولاد مجاناً. تبلورت الصورة في رأسي وأصبحت أكثر وضوحاً. فلتحقيق الحلم بلبنان الأفضل، يجب أن يشارك في هذا الحلم الجميع وبخاصة الجيل الصاعد. ولكن كيف سيشاركونني هذا الحلّ إن كانوا لا يعرفون القراءة ولا الكتابة؟ بعد أن فكّرت في هذه الأمور، نظرت فإذا بالفتاة مازالت أمامي منتظرة ردّاً منّي، فسألتها عن سبب رغبتها في التعلّم. فأجابت ببراءة:" لأحسّن مستوى معيشة عائلتي وأوفّر لهم وللمحتاجين الغذاء." عرفت حينئذ أنّ إنقاذ بعض الأولاد مسؤوليتي.

غادرت السوق، والمشاعر الجياشة تعصف في قلبي، فالحلم بدأ هنا ولكن سيكتمل في لبنان ككل. اتّصلت بأصدقائي ورويت لهم هذه القصّة بأمل، فبادروني بالحماس نفسه، وكان أوّل ما نطقوا به:"مشروع توحيد لبنان بحاجة لنا، نحن الشّباب، فطبعاً نحن موافقون على خوض هذه التجربة." وقرّرنا الاعلان عن حملة لتعليم الأولاد، بدءاً من طرابلس ووصولاً الى أقصى الجنوب، قرّرنا أن نبني جيلاً يشاركنا الحلم بلبنان نفسه.

كلّ يوم تعليم بالنسبة اليّ كان متعة.فرؤية الأولاد يدخلون الى المدرسة بحماس جعلني أبصر فيهم شمعة النّجاح، شمعة الأطباء والمفكّرين والمنقذين . فكلّ ولد منهم كان مشروعاً في حد ذاته، مشروع لبنان متطوّر ومتقدّم. وتضاعف حبّي للمشروع بعد أن تلقّيت التعليقات الأيجابيّة والتحفيزات من الجميع، الّذين عبّروا عن استعدادهم الكامل لتقديم المساعدة،كما اتّصلتْ بنا الجمعيات الكثيرة الّتي عبّرت عن استعدادها لدعم مشروعنا. فهذا لبنان، وهذا شعب لبنان، شعب كان ومازال وان شاء لله سيبقى دائماً قلباً واحداً. فمشروع تعليم الأولاد لم أتمكّن الاّ من رؤيته مشروع مدرسة مجانيّة في المستقبل تستقبل الجميع من كلّ مكان، هذا لبنان!

وفي الوقت الحاضر، أجلس وأفكّر ماذا لو لم أذهب الى طرابلس؟ ماذا لو لم استجب للصوت الذي في داخلي ولم أدخل ذلك المحل التراثي؟ ماذا لو لم أصدّق كلام العم وغادرت من دون اهتمام؟ ماذا لو لم أفكّر في هذا المشروع وأتعاطف مع الطفلة بائعة العلكة؟ أكنت سأقدم على هذه الخطوة لمساعدة الآخرين وبخاصة الأطفال؟ بالنسبة إليّ، كلّ ما حصل معي كان إشارة، إشارة للمساهمة في إنقاذ بلدي وأهله وإلى أنّ لبنان لن يموت طالما أنّ شعبه قادر على الحلم. فأنا حلمت وظننت أنّ الحلم سيبقى حلماً لولا حبّي للبنان. وطالما أنّ الحميع قادر على الحلم، الجميع قادر على معالجة لبنان، فطائر الفينيق، يرمّم نفسه بعد كلّ انحطاط ويعود أقوى ممّا كان. ولبنان الحلم بتظافر جهود الجميع لن يبقى حلماً بل ستبعث الروح فيه مرّة أخرى، لأنّه أرض المعجزات وأرض الأحلام.